

العربية

الاستاذ عبد الرحيم السايح
من مشيخة الازهر

بها : اعتدال كلماتها فان اكثر الفاظها قد جاء على ثلاثة أحرف ، وأقل من ذلك ماجاء على أربعة أحرف . وأقل من ذلك ماجاء على خمسة أحرف . وليس فيها ماجاء على ستة أحرف . وما كان على ستة أحرف فهو مزيد وليس بأصل في الكلمة . وهناك ألفاظ قليلة جاءت على حرفين أو حرف واحد .

وتمتاز بفصاحة مفرداتها وجاذبية كلماتها فلانسان أن يصنع من مفرداتها المانوسة الموضاءة قطعاً شعرية تسحر الالباب وتأخذ بالافهام. والعرب قد عنوا بالفاظها الجميلة ذات الجرس الأخاذ وذلك خدمة منهم للمعنى حتى يقع سهلاً ميسراً وفي ذلك قال ابن جنس في كتاب الخصائص (الجزء الاول) «وذلك أن العرب كما تعنى بالفاظها فتصلحها وتهذبها . وتراعيها وتلاحظ أحكامها

بالشعر تارة وبالخطب أخرى . وبالإسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها فان المعاني أقوى عندها وأكرم عليها . وأفخم قدراً في نفوسها . فأول ذلك عنايتها بالفاظها فانها لما كانت عنوان معانيها . وطريقاً الى اظهار أغراضها ومراميتها أصلحها ورتبها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهب بها في الدلالة على القصد » .

وجاء في موضع آخر من نفس الجزء الاول من الخصائص . « فكان العرب انما تحلى بالفاظها وتدبجها وتشبها وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراها . وتوصلا بها الى ادراك مطالبها وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان من الشعر حكمة ، وان من البيان لسحرا فاذا كان رسول الله يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصائد واشراكاً للقلوب . وسبباً وسلماً الى

اللغة العربية أعرق اللغات العالمية منتبها وأعزها نفراً ، سايرها التاريخ وهي مهذبة ناضجة مليئة بالقوة والخيوية .

وبفضل القرآن الكريم . صارت أبعد اللغات مدى ، وأبلغها عبارة ، وأغزرها مادة ، وأقواها جلادة . وأدقها تصويراً لما يقع تحت الحس ، وتعبيراً عما يجول في النفس . تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، وتصعد حتى تصل أرقى اختلاجات النفس واسعة سعة الجو ، وعميقة عمق البحر ، وليس هناك فكرة من الافكار ، ولا معنى من المعاني ، ولا عاطفة من العواطف ، ولا نظرية من النظريات . عجزت اللغة العربية عن تصويرها تصويراً صادقاً بارز القسما ، حتى المقاطع .

هذه اللغة شحذتها حضارة الاسلام بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الانسانية . وبعثت في أوصالها القوة فزادتها نماء وسعة أفق ونمت في ظل الحضارة الاسلامية نماءها الطبيعي المتطور من داخلها . وهضمت خلاياها النامية كل ما قدم لها . حتى تعمقت واتسعت وانتشرت وطوت في دورانها القوي كل ما يقف في طريق انبعاثها وتفوقها . وكل ما يعرقل انطلاقتها ويثقلها عن التحليق .

قال أبو منصور الثعالبي في مقدمة كتاب « فقه اللغة » ، « والعربية خير اللغات والالسنة والاقبال على تفهمها من الديانة اذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين . وسبب اصلاح المعاش والمعاد » .

وتمتاز اللغة العربية بميزات جعلتها أسلم اللغات وأقواها وأشدّها وأصلحها ومن هذه الميزات التي انفردت

تحصيل المطلوب . عرف بذلك أن الالفاظ خدم للمعاني والمخدوم لاشك أشرف من الخادم .

وتمتاز اللغة العربية بالاعراب فى أواخر الكلم قال ابن جنى فى الحصاصن « الاعراب هو الابانة عن المعانى بالالفاظ . واما لفظه فانه مصدر أعربت عن الشيء اذا اوضحت عنه وفلان معرب عما فى نفسه أى مبين له وموضح عنه . واصل هذا كله قولهم « العرب ، وذلك لما يعزى اليه من الفصاحة والاعراب والبيان ومنه قولهم فى الحديث الشيب تعرب عن نفسها .

فالاعراب فى اللغة العربية هو الابانة عن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة للكلمة وعن صلوات الكلمات بعضها ببعض ومدى ارتباط ذلك .

وقد قال الدكتور عثمان أمين فى محاضرات الموسم الثقافى الثانى لجامعة الأزهر « العربية لغة وضوح وجلاء والاعراب احدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية وفى اللغات الحالية من الاعراب يعتمد اهل اللغة على القرائن وعلى اضافة كلمات الى الجملة لفهم المقصود من المعانى . ولكن الاتكال على القرائن ربما لا يطرده كما يقول اليمنى صاحب (الطراز) فأوجبت لغة العرب التفريق بين الفاعل والمفعول بالاعراب والا وقع الابهام .

وبهذا الصدد يروى أن رجلا دخل على أمير المؤمنين على بن ابي طالب كرم الله وجهه فقال له من غير اعراب ، قتل الناس عثمان ، فقال له على بين الفاعل من المفعول رصن الله فاك .

فالاعراب مرتبة سامية بلغتها العربية ولا يشاركها فيها من اللغات القديمة الا اللاتينية واليونانية . ومن اللغات الحية الالمانية .

وتمتاز اللغة العربية بالايجاز والتركيب ، الايجاز فى اللفظ والتركيب فى المعنى وذلك حرصا منها على وقت السامع والمتكلم وخير الكلام ماقل ودل . قال الشعالبي فى فقه اللغة « تقدم على الكناية توسعا واقتدارا واختصارا وثقة بفهم المخاطب .

واننا نجد ذلك كثيرا فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى « كل من عليها فان ، اى على الارض وقوله تعالى « حتى توارت بالحجاب ، يعنى الشمس .

وقد تستعمل العربية حرفا واحدا يدل على معان كثيرة ويعبر عن اغراض متنوعة . مثال ذلك حرف اللام . منه لام التوكيد ، ولام الاستغاثة ، ولام التعجب ، ولام

الملك ، ولام السبب ، ولام التخصيص ، ولام الامر ، ولام الجزاء ، ولام الوقت ، وفى العربية مرونة وحس موسيقى يجعلانها لا تتردد فى أن تزيد أو تحذف حفظا للتوازن فى الكلمة . وإشارا له .

وتمتاز العربية بالحركية والقوة ليقع القول من نفس السامع الموقع القيم الذى يهيم له الحالة النفسية التى تحفره الى العمل والحركة .

قال ابن جنى فى أول كتاب الحصاصن . « ان معنى قول (ق و ل) اى وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض . وتأخره عنه انما هو للخفوق والحركة وجهات تراكيبيها الست مستعملة كلها لم يهمل شيء منها وهى (ق و ل) (ق ل و) (و ق ل) (و ل ق) (ل ق و) (ل و ق) ثم قال قول وهو القول وذلك ان الفم واللسان يخفان له ويقلقان ويمدلان به وهو يصد السكوت الذى هو داعية الى السكون . ألا ترى ان الابتداء لما كان آخذا فى القول . لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركا . ولما كان الانتهاء آخذا من السكوت لم يكن الحرف الموقوف عليه الا ساكنا .

ثم ان التصريف والاشتقاق يؤدى فى العربية دورا فعلا لا يستهان به فى تنويع المعنى الاصلى اذ يكسبه خواص مختلفة بين مبالغة وتعدية ومطاوعة ومبادلة . ومشاركة .

قال المطران يوصف داود الموصلى « من خواص اللغة العربية وفضائلها . انها أقرب لغسات الدنيا الى قواعد المنطق بحيث أن عباراتها سلسلة طبيعية . يهون على الناطق الصانى الفكر أن يعبر فيها عما يريد من دون تصنع وتكلف باتباع مايدله عليه القانون الطبيعى . وهذه الخاصية ان كانت اللغات السامية تشترك فيها مع العربية . فى وجه من الوجوه قلما تجدها فى اللغات المسماة الهندية والجرمانية ولاسيما الافرنجية منها .

هذه هى اللغة العربية التى فتحت صدرها لتراث الانسانية واتسعت لمقومات الامة الاسلامية التى شرقت بحضارتها وغربت ، واستطاعت بمرونتها ان تكون لغة العلم الاولى فى جميع انحاء الدنيا . فاستقت منها اوربا ينبوع العلم المتدفق . وكانت لعلماء اوربا المصدر الغنى بالعلوم والفنون من كيميائية وجيولوجية ورياضية وطبيعية وفلكية ونباتية وحيوانية وهندسية وطبية وزراعية وصيدلية وبيطرية وما إليها من مشتقات العلوم والفنون وقد ضمت معاجم العربية هذا التراث الضخم

من المفردات وجمعت الالفاظ والمصطلحات فى كل عصور تطورها . ولا يدانيها فى ذلك أى لغة من لغات العالم .

سل بها اندلساً هل قصرت
دون مضمار العلا حين اهايا
غرست فى كل ترب أعجم
فزكت أصلا كما طابت نصابا
أنت بالعمران روضا يانعا
وادعها تجر ينابيع عذابا
كل عصر دارها ان صادفت
منزلا رحبا وأهلا وجنابا

وأنقل للقارئ العربى آراء فريق من العلماء والمستشرقين والكتاب الذين يتغنون من بحوثهم ومقالاتهم مرضاة العلم فى ذاته ويقصدون بيان الحقائق التى لاسيما الى انكارها أو الهروب منها . فلا ينحرفون الا حين تقتادهم السطحية .

قال المستشرق . ارنست رينان « من أغرب المدهشات ان تنبت تلك اللغة القوية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل . تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها . وحسن نظام مبانيها . ولم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة . ولا نكساد نعلم من شأنها الا فتوحاتها وانتصاراتها التى لاتبارى . ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة » .

وقال : (ادوارد فان ديك) « اللغة العربية من أكثر لغات الارض امتيازا وهذا الامتياز من وجهين : الاول من حيث ثروة معجمها . والثانى من حيث استيعاب آدابها .

وقال (لسوى مسينيون) « فى حين ان اللغة السريانية قد نقلت أجروميتها عن اللغة اليونانية نقلا . استطاعت لغة الضاد أن تشيد بناء فخما من الاعراب يضع أمام الابصار مشهدا فلسفيا ذا أصالة وإبتكار » .
وقال : (بركلمان) « بفضل القرآن بلغت العربية

من الاتساع مدى لاتكاد تعرفه أى لغة من لغات الدنيا والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية هى وحدها اللسان الذى أحل لهم أن يستعملوه فى صلاتهم . وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع اللغات الاخرى التى تنطق بها شعوب اسلامية » .

وقال ايضا « ولغة الشعر العربى قد تميزت بميزة عظيمة من الصور النحوية . وقد بلغت من حيث دقة التعبير عن علاقات الاعراب والنحو ذروة التطور فى اللغات السامية ومعجم العربية اللغوى لا يجازيه معجم فى ثرائه » .

وقال : (شينجلر) « ان اللغة العربية لعبت دورا أساسيا كوسيلة لنشر المعارف وآلة للتفكير فى خلال المرحلة التاريخية التى بدأت حين احتكر العرب - على حساب الرومان واليونان - طريق الهند » .

وقال : (فريتاغ) « ان اللغة العربية ليست أغنى لغات العالم فحسب . بل ان الذين نبغوا فى التأليف بها لا يكاد يأتى عليهم العد » .

وقال : (ريتشرد) « انه لا يعقل أن تحل اللغة الفرنسية او الانجليزية محل اللغة العربية وان شعبا له آداب غنية متنوعة كالآداب العربية ولغة مرنة ذات مادة تكاد لا تفتنى لا يخون ماضيه ولا ينبذ اثره اتصل اليه بعد قرون طويلة عن آبائه واجداده » .

وقال : (ماجليوت) « ان اللغة العربية لاتزال حية حياة حقيقية وأنها احدى ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليه غيرها (الانجليزية والاسبانية .) وهى تخالف أختيها بأن زمان حدوثها معروف ولا يزيد سنهما على قرون معدودة . أما اللغة العربية فابتدأها أقدم من كل تاريخ » .

فباللغة العربية باقية بقاء الدهر مدوية دوى الآذان . قوية بأهلها عزيزة بهم . ولن تنال منها تلك الدعوات المشبوهة بأذن الله .

أحمد عبد الرحيم السايح
من علماء الأزهر